أساليب الحجاج بالشرح في الحديث النبوي –دراسة تداولية-

Argumentative،s methods of explanation in the prophet،s hadith-a pragmatic study.

د/ محمد نعمي *

تاريخ الإرسال: 2021/12/22	تاريخ القبول: 2022/03/19	تاريخ النشر: 2022/05/01

الملخص:

يتغيا هذا المقال إثبات الأبعاد الحجاجية لآلية الشرح المستفادة من الخطاب النبوي الشريف، والتي يتوخى بها استمالة الناس وتسخيرهم لفعل أو ترك، وقد أملت علينا طبيعة الموضوع أن نتبع منهجية خاصة، تبلورت في تحديدات اصطلاحية عن مفهوم الشرح ووظيفته الحجاجية، ومقاربة حجاجية لنماذج من أحاديث نبوية باحثين فيها عن فعالية آلية الشرح الحجاجية الاقناعية، حسب ما يسمح به متسع البحث زمنا وفضاء.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، الحديث، الحجج، الشرح، النبوي.

Abstract:

This article aims to prove the argumentative dimensions of the explanation mechanism learned from the honorable Prophetic discourse, which pursues to lure people and harness them to act or to quit. The nature of the subject has leaded us to follow a special methodology which is crystallized in idiomatic definitions of the explanation's concept and its argumentative function. And an argumentative approach to models of prophetic hadiths, searching in them for the effectiveness of the persuasive argumentative explanation mechanism, as permitted by the scope of the research in space and time.

***Key words**: speach, hadith, argumentatives ,explanation, the prophet.*

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

المؤلف المرسل: محمد نعمي mohnaami9@gmail.com

*جامعة لونيسي علي البليدة 2، mohnaami9@gmail.com

1. مقدمة:

تعود الوظيفة الاستدلالية الحجاجية للشرح، في كونه منسجما مع الوظيفة الإبلاغية، والمهمة الدعوية التي ورد من أجلها الخطاب النبوي الشريف الذي يعتمد على تقرير قضايا العقيدة وترسيخها في النفوس، وتصحيح المفاهيم والتصورات، وتعديل السلوك، ويرتكز على التبليغ والتأثير والإقناع.

وعليه تأتي هذه الدراسة لتحاول إثبات الأبعاد الحجاجية لآلية الشرح المستفادة من الخطاب النبوي الشريف، وقد تأسست على إشكالية مركزية هي:

ما هي الأبعاد الحجاجية لآلية الشرح في الحديث النبوي الشريف؟ وما مدى فاعليتها في البنية الحجاجية للحديث النبوي الشريف؟

2.حجاجية الشرح :

الاستدلال بالشّرح من الآليات المنطقية التي اعتمدتها مدونة الدراسة في مجادلاتها لأهميتها، بوصف الأحاديث النبوية وحيًا إلهيًا يروم تقرير الحقائق العلمية، وتوضيح المسائل الشرعية، وتلاؤم هذه الآلية مع نفسية المخاطبين وتفاعلهم مع الحجاج النبوي الذي يخاطب عقولهم وقلوبهم في آن معًا، ويهدف إلى تغيير واقع قائم.

وموضوعات رسالته -عليه الصلاة والسلام- كثير منها يحتاج إلى آلية الشرح، لأغراض حجاجية، "فالشرح شكل من أشكال البرهنة"[1]، و"آلية من الآليات الحجاجية يقوم على القاعدة الإخبارية، غير أنه يتميز بكونه يسعى إلى الإفهام، وتوضيح بعض الظواهر ضمنيّة كانت أو تصريحية[2]، والغرض منه هو "التمكّن من استبدال قول مكان قول آخر يعبّر عن نفس المعنى، لكن بصيغة مختلفة"[3].

ومن أبرز الدراسات الحديثة التي تناولت الجانب الحجاجي للشرح واستوعبت هذه الخاصية الحجاجية للشرح تلك التي أنجزها الباحث ليونيل بلنجر والمعنونة بـ عدة الأدوات الحجاجية، حيث أرجع فعاليّة الحجاج بالشرح إلى التفاعل والمشاركة الإيجابية بين المتكلم والمخاطب، لتحقيق الإقناع والإلزام، "فالشرح عنده حجّة على تمهيد ومعرفة وثمرة وخبرة، وهو علامة على بذل جهد من أجل فهم ينمّ عن دراسة ومعرفة، ولذلك هو أثر الموضوعيّة، والمصداقية الفكريّة. وتبدأ أهمية الشّرح في الحجاج في كونه يحثّ على

الإنصات والاستيعاب الذي يسبق الاستمالة، ويدعو إلى المشاركة، إذ كثيرا ما يفشل الجهد الإقناعي بسبب عدم الفهم"[4]، والشّرح بهدف الإقناع يستثمر خمس وسائل هي:[5]

-التعريف .

2-الوصف أو السرد .

3-المقارنة .

4-التشبيه .

5-المثال باستحضار الأحداث .

1.1 الشّرح بالتعريف

1.1.1. التعريف لغة:

للتعريف دلالات لغوية متضمنة في الجذر اللغوي (ع ، ر ، ف) ذكر أنه الإعلام، "والتعريفُ : الإعْلاَمُ[6]، ودلالة الطريق الموصل، ذكر ذلك الشريف الجرجاني في التعريفات: "عبارة عن ذكر شيء تستلزم معرفته معرفة شيء آخر"[7].

2.1.1.1 التعريف اصطلاحا:

وعند المنطقيين والمتكّلمين هو "الطريق الموصل إلى المطلوب التصّوري"[8]، وهذا المعنى المقصود في مدونة الدراسة، فهذا الأمر المطلوب حصول صورته في الذّهن قد يكون معنًى من المعاني أو شيئًا من الأشياء.

2.1.1 حجاجية التعريف

وتظهر ملامح الحجاج بالتعريف في كونه يوجّه الاستدلال حتى يكون مقبولا عند المخَاطَب، وبديلاً عن معارف مسبقة، فيدفعه إلى إعادة النظر في دعواه؛ لأنّه يدرك حقيقتها. "ذلك أنّ التعريف يجعل من حقيقة الشيء وصفاته وخصائصه حجّة ودليلًا على الحكم المراد إثباته أو نفيه[9]، وتتحدد فعالية التعريف الحجاجية في كونه أيضًا" نمطًا برهانيًّا يلجأ إليه المتكلم لامتلاك قواعد الابتداء البرهانّي التّي يتقوّم بها محيط الاعتقاد، ويصنع من خلالها مآل الإقناع"[10].

وقد عد التعريف عند روبريو: "دليلاً حجاجيًا في الإقناع، ووسيلة ناجحة في بناء القول[11]، فان نعّرف – كما يقول روبريو - :"يعني أن نقيم علاقة تعادل وتكافؤ بهدف إعطاء معنًى لمفهوم ما، ويشّكل التعريف في الغالب مدخلا للحجاج، لأننا نحتاجه حينما نريد

تحديد مفهوم، حتى تكون أرضية تقوم على قواعد مشتركة بين المخاطبين من أجل إقناع أحسن"[12].

3.1.1 مستويات التعريف الحجاجيّ

التعريف ثلاثة مستويات في أقوال من يسعى إلى الشرح من أجل الإقناع:[13]

المستوى الأول: تعريف كلمة لأنّها ليست معروفة من قبل المتلقين، لكون الكلمة غريبة، أو مُستحدثة، وذلك عن طريق الرجوع إلى كلمات أخرى معروفة.

المستوى الثاني: تعريف مفهوم أو فكرة، ويتمّ ذلك بطريقة حجاجيّة عن طريق انتقاء الكلمات، والتأويل واستعمال النعوت من أجل الوصف، والتبسيط، والتعزيز، ومناقشة الالتباس والشرح والتفصيل .

المستوى الثالث : التلفظ في بداية الحوار بفكرة تشمل على شرح كلمة ما، أو مفهوم، أو شيء، أو تجمّع، وإضافة إلى الأحكام التي تستند إليها، فيكون هذا التلفظ مقدمة للبرهنة والاستدلال والإثبات.

4.1.1 مستويات التعريف الحجاجية في الأحاديث النبوية

المستوى الأول:

تعريف كلمة لأنّها ليست معروفة من قبل المتلقين: قوله تعالى: "سيأتي على الناس سنوات خدّاعات، يُصَدق فيها الكاذب ويُكذَّب فيها الصادق، ويُؤتمن فيها الخائن ويُخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة قيل وما الرويبضة يا رسول الله ؟ قال : الرجل التافه يتكلم في أمر العامة"[14]، الرويبضة من حيث الأصل اللغوي تصغير الرابضة، وهو راعي الربيض، والربيض: الغنم، والهاء للمبالغة، وقيل: الرويبضة تصغير الرابضة، وهو العاجز الذي ربض عن معالي الأمور، وقعد عن طلبها، وزيادة التاء للمبالغة. فالفظة معروفة عند المتلقين بالمعنى القديم، فتفرع عنها معنى جديد جاء في سياق خفي على بعضهم، وتبرز وظيفته الحجاجية الاستدلالية "في الجلاء والوضوح الذي أضفاه التعريف على المعرف، بلفظ آخر مرادف معلوم عند المخاطب، ومرادف الشيء خاصة من خواصه"[15].

هذا الحديث جاء في سياق معالجة قضية تتعلق بالأخلاق، تدور بين يدي الساعة تتغير الأحوال، وتتبدل المفاهيم، وتتقلب الموازين، ويعيش الناس في خديعة كبيرة،

ويتصدر المشهد أناس أراذل لا قيمة لهم ولا وزن لهم، وقد وصفهم النبي –عليه الصلاة والسلام- بالحقارة والتفاهة الذين لا مقام ولا قدر لهم.

والاستدلال بالتعريف في الآية يبين "المعنى المراد بطريقة مختصرة ومباشرة، ويحدث نوعا من التبادل الدلاليّ والانفعالي بين طرفي التعريف، والفكرة المتوّلدة عن هذا التعريف"[16]، فتعريف: الرويبضة بأنّه (بالرجل التافه)"يدفع المتلقي إلى الربط بين المعنى المتعارف عليه، والمعنى الآخر المرادف الذي طرحة الخطاب النبوي، فيحصل من جرّاء ذلك تأثير انفعاليّ قويّ متولد من تبادل موقعي الدلالة بين الطرفين"[17].

المستوى الثاني:

وهو كما جاء عن بلنجر: "تعريف مفهوم أو فكرة عن طريق انتقاء الكلمات والتأويل، واستعمال النّعوت من أجل الوصف، والتبسيط، والتعزيز، ومناقشة الالتباس، والشّرح والتفصيل"[18]، ومنه قوله –عليه الصلاة والسلام-:"أتدرون ما المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار"[19].

جاء التعريف في الحديث آنف الذكر، لبيان حقيقة مفهوم مستقّر في الأذهان بمعنى معّين هو الإفلاس المادي، ويعرّفه تعريفا آخر، موجّهاً الأذهان إلى معنى جديد له هو معيار التفاوت بين المفهومين، فالإفلاس معروف عند المتلقين بأنّه نفد المال–أيّ شكل خارجي– ولذلك استهل الخطاب النبوي بالاستفهام الذي يراد به التعريف، لأن المستفهم تارة يستفهم لتعريف المخاطب بحقيقة ما يلقى إليه.

لقد قدح في ذهن الصحابة عند السؤال- أن المفلس بميزان الدنيا هو من لا درهم له ولا متاع أجابوا بما عندهم من العلم بحسب عرف أهل الدنيا- يدل عليه قولهم (فينا)، وهو إفلاس عارض يزول بزوال المفلس، فنقلهم الرسول- عليه الصلاة والسلام- من مفهوم في الآخرة لكي يكون الصحابة والأمة من بعدهم على علم بحقيقة المفلس، ليقيم البراهين والأدلة والحجة.

ومما زاد في إظهار المعاني الكامنة في هذا المفهوم، وإكسابه قوة وبعدا حجاجيا، تعزيزه بعدد من العوامل الحجاجية منها: "أداة التأكيد (إن)، والقصر بتعريف الطرفين بقصر صفة الإفلاس على مدلول الصلة (من يأتي يوم القيامة بصلاة...)، كما عزز بحجة الاستعارة التصريحية، المتمثلة في تشبيه المؤذي بالمفلس، وكل ذلك في إطار الحوار الحجاجي الهادف الذي يناقش المفهوم ويفنده، ويهدم صورته المستقرة في الأذهان، ليبني له صورة جديدة موازية للمعنى الأصلي، متناسبة مع التقييم الشرعي للمفلس"[20] ، وبذلك فالخطاب النبوي اعتمد على الاستدلال بالتعريف، الذي جعل من حقيقة المفلس حجّه ودليلاً من أجل الإقناع، وتتجلى فعاليّة آلية التعريف الحجاجية في كونها تجعل المتلقي يتأمل ويعيد النظر ، ويمكن التمثيل لذلك حجاجيا كالآتي :

المستوى الثالث:

أما المستوى الثالث فهو: "(التلفظ في بداية الحوار بفكرة تشتمل على شرح كلمة ما أو مفهوم ،أو شيء"[21]، وتجمع إضافة لذلك، الأحكام التي تستند إليها. إنها مقدمات للبرهنة، أطروحات، إثباتات، حيث يتمثل موضوع الاستدلال كله في برهنتها، ومنه جاء في حديث –عليه الصلاة والسلام- أنه: "كان يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له جمدان، فقال: سير هذا جمدان سبق المفردون قالوا: وما المفردون؟ يا رسول الله، قال: الذاكرون الله كثيرا، والذاكرات"[22]، حيث عدل الخطاب النبوي من اسم (السابقون) إلى (المفردون)؛ ليظهر وجه ذكر السابقين في هذا الحديث فانه لما سبق الركب وتخلف بعضهم نبه –عليه الصلاة والسلام- على أن السابقين على الحقيقة الذين يدمنون ذكر الله، بعبارة وجيزة معبّرة عن حقيقة مفهوم التفرد الذي يؤدي إلى الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، من خلال إسناد صفات إليهم مشعر بأهميتهم وعظيم شأنهم. فكان ذكر صفات المتفردين أدلة على استحقاقهم هذه المكانة وهي الاتصاف بهذه الصفات السامية وبذلك تحقيق الحجّة والغاية التداولية من الآيات وهي تحقق بهذه الصفات اللازمة لأهل الذكر ليقبلوا عليها ويتحلوا بها.

ويتجلى البعد الحجاجّي في تعريف التفرد الذي يؤدي إلى الولوع بالذكر والشغف به حتى لا يكاد يفارقه، بأنّ "التعريف بالمفهوم يتجّه نحو اختيار مركّز ومستوعب لكل

التفاصيل، بحيث يؤثر على المستمع، ويوقعه في شراك الموضوع الذي يطرحه المتكلم"[23]،

حيث جاءت صفات متناسقة متصلة متكاملة، كل واحدة تسلم للتي تليها وتدل عليها وتوجدها، وهدفها تربوي توجيهي، وغرس الصفات الإيجابية والفضائل الأخلاقية في نفوس المتلقين وقلوبهم وجعلهم معنيين بها بشكل أو بآخر على مستوى الفكر والسلوك.

2.1 الشرح بالمقارنة

1.2.1 حجاجية المقارنة.

الشرح بالمقارنة من أساليب الشرح المنطقية، التي تفحم المتلقين ليسلموا بها بعد أن يوازنوا بين فكرتين أو أكثر، وهو عند ليونيل بلنجر: "وسيلة من الوسائل الشائعة للمحادثة الإقناعية"[24]، ويظهر البعد الحجاجي للشرح بالمقارنة في "القدرة على فحص التشابهات، أوالاختلافات، في الوقت نفسه"[25]، فدور المقارنة ملائم في كل مكان، "إنها نقطة انطلاق للحجاج، ومن ثمة فإنها تسهل الاستنباط، والتعميم، وإجراءات منطقية أخرى للاستدلال"[26]، وتعتبر المقارنة من الحجج شبه المنطقية عند بيرلمان التي يكون تأثيرها الإقناعي متشكلا من الفكرة الضمنية التي تدعمها المقارنة"[27]، أما عند أولفي ريبول فيرى أن المقارنة "من الحجج التي تبني الواقع، وليس بالضّرورة أن تُعقد بين طرفين من الواقع، بل قد تكون مبتدعة وخيالية"[28].

إنّ الخطاب النبوي مليء بالمقارنات، واعتماد هذا الأسلوب الحجاجي له مغاز عديدة، يهدف فيها إلى إحداث الأثر في نفوس المتلقين، وبدفعهم إلى التفكير والاختيار بين فكرتين من خلال إبراز نقاط الاختلاف، "ونظرا لدوره في التوضيح والإفهام ولأهميته في إرساء المعايير والقيم التي ينبغي الاحتكام إليها في الأفكار والوقائع والمواقف المختلفة، ولكونه من الأساليب سهلة الاستيعاب التي يسهل على المخاطبين استيعابها، على اختلاف ثقافتهم ومشاربهم وكفاياتهم المعرفيّة والإدراكية"[29]

ومن ذلك قوله –عليه الصلاة والسلام-: "إن الْحَلالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُما أمور مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ الناسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِك أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ

مَلِكٍ حِمًى، أَلا وَإِنَّ حِمَى الله مَحَارِمُه، أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَح الْجَسَدُ كُلُّهُ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْب"[30].

فالمقارنة في الحديث جاءت في سياق الحديث عن حال الراعي الفقير يرعى حول الحمى، وحال من يستهين بالشبهات ويواقعها. ليبيّن لهم الرسول –عليه الصلاة والسلام- مسألة مهمة من مسائل الدين، تتعلق بالسلوك. إذ شحنت هذه المقارنة بعنصر تصويري ساهم في تكوثر وظيفتها الحجاجية التأثيرية، إذ يحس القارئ بالظلال الحسية لهذا الذي يحوم حول الحرام بمقارفة المشتبهات مثل الراعي الذي يرعى الدواب والبهائم والإبل والغنم، فضلا عن الوضوح والجمال والقوة والتأثير في النفوس لما تجده من راحة واطمئنان.

وهذا ما ذهب إليه حازم القرطاجني حين رأى أن: "للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكا وإبلاغا بالانفعال إلى مقتضى الكلام، لأن تناظر الحسن في المستحسن المتماثلين أمكن من النفس موقعا من سنوح ذلك لها في شيء واحد، وكذلك حال القبيح، وما كان أمكن منها فهو أشد تحريكا لها، وكذلك أيضا مثول الحسن إزاء القبيح أو القبيح إزاء الحسن مما يزيد غبطة بالواحد وتخليا عن الآخر لتبيين حال الضد بالمثول إزاء ضده، فذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيبا"[31].

ويمكن صياغة المقارنة حجاجيا على الشكل التالي:

وجه المقارنة	أوجه الشيه	الغاية الحجاجية

من الحرام	كلاهما يقترب من الحرام والممنوع ويكاد يقع فيه	المقارنة قائمة على التقسيم والمقابلة حجاجيا ، وبذلك يتولّد حجاج تقييمي يوجه المتلقي نحو النتيجة المحدّدة التي يريدها الخطاب النبوي ، وفي تصحيح السلوك، فالذي يستهين بالشبهات يكون أثر ذلك وضرره على دينه وفي آخرته، أم الذي يرعى حول الحمى فيكون ضرره على دنياه.
التعرض للعقاب	**كلاهما يعرض نفسه للعقاب**	المستهين بالشبهات عقوبته من الله -عز وجل-، والراعي حول الحمى عقوبته من البشر وشتان بين العقوبتين.
وسيلة السلامة	**البعد عن الاقتراب من الممنوع والحرام**	المستهين بالشبهات لا سلامة له إلا بالبعد عن هذه الشبهات وتعظيم حرمات الله، وكذلك الراعي حول الحمى لا سلامة له إلا بالبعد عن تلك الحمى.

3.1 الشرح بالوصف أو السرد

جاء في لسان العرب أن الوصف :"الكشف والإظهار، وذكر الشيء بحليته ونعته"[32]، وهو نفس ما ذهب إليه ابن القيم ": والوصف أصله الكشف والإظهار ... وأحسنه ما يكاد يمثل الموصوف عيانًا"[33].

وعند النقاد العرب هو :"ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات"[34]، وفي دائرة المعارف الكبرى للقرن الثالث عشر عُرف الوصف أنّه: "شكل من أشكال التفكير بواسطة التفصيل، يجعل الشيء مرئيًّا بوجه من الوجوه، بدلاً من تعيينه ببساطة، وذلك بالعرض المتحرك لأكثر الخصوصيات والملابسات أهمية"[35]، وعند اللسانيين الغربيين يعد

الوصف، عنصر من عناصر دائرة التخاطب، أيّ "ما يحدث فيه رصد لسمات الموصوف، ووصف للمواقف والمشاعر والانفعالات"[36].

أما السّرد في اللغة يدور حول معنى "التتابع والاتساق ، وسَرَدَ الحديث سردًا إذا تابعه، وفلان يسرد الحديث سردًا إذ كان جيّد السياق له"[37]، و(السين والراء والدال) عند ابن فارس: "أصل مطّرد مُنقاس، يدّل على توالي أشياء كثيرة يتّصل بعضها ببعض"[38].

أما في الاصطلاح فهو: "نقل الفعل القابل للحكي في الغياب إلى الحضور، وجعله قابلاً للتداول، سواء كان هذا الفعل واقعيًا أو تخيليًا، وسواء تم التداول شفاهًا أو كتابة"[39].

1.3.1 حجاجية الوصف والسرد.

وتبدو أهمية الوصف أو السرد في الاستدلال الحجاجي في كونهما "نوع من الإثبات والاستدلال، وعمل لا قوليّ يرمي إلى غاية حجاجية، لا ينفك فيه الوصفيّ عن الذاتي، بمعنى أنه يستحيل أن ينفصل المحتوى الوصفيّ عن موقع تلفظيّ مُوّجه حجاجيًّا، كما لا ينفصل عن وجهة نظر المتكلم"[40]. فالوصف لا ينفكّ عن القصد، ولذلك يوهم بأنّه "ممارسة نصيّة منمطة مُوجهة إلى غاية"[41].

من ذلك قوله –عليه الصلاة والسلام- في وصف الإنسان والدنيا: "مَا لِي وَ لِلدُّنْيَا، وَ مَا مَثَلِي وَ مَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ رَاحَ وَ تَرَكَهَا "

استعمل الخطاب النبوي الوصف بإرساء الموصوف من خلال ذكره في مطلع الحديث (الدنيا)، ثمّ بدأ بإسباغ النعوت على الموصوف، فالدنيا، كحال راكب طريقه طويلة، وغايته بعيدة، فنزل يستظل بشجرة، ثم ما لبث أن قام ورحل عنها.

وهذا الوصف يصف لنا الرسول –عليه الصلاة والسلام- الدنيا صورة أخرى مختلفة تماما عما هو سائد في أذهان الناس، وتتحدد فعاليته الحجاجية في تحذير المتلقين من فتنة الدنيا، ومغبة الركون إليها، والاطمئنان لها، والى التنبيه إلى كون عمرها في جنب الآخرة لا يعدو أن يكون ساعة من نهار هذا الوصف حتى تستقر حقيقتها في القلوب، فالوصف إذن متضمّن لفعل قوليّ يرمي إلى التحذير وهي الغايات الحجاجية للوصف.

ولتأكيد هذه الحقيقة وظف التصوير ألتشبيهي لإحالة المعنى والحالة صورة وهيئة، تروم الاستمالة والتأثير، فوجه الشبه سرعة الرحيل، وقلة المكث، وعدم الرضا بالدنيا وطنا، فاستعمال أسلوب الوصف التصويري ليكون التأثير أشد وأقوى، فيكون ذلك أدعى للتذكير، حيث اجتمع الإقناع والامتناع ، وكان الوصف آلية استدلالية منطقية، ووسيلة تأثير في القلوب والوجدان.

ومن النماذج النبوية للاستدلال السردي القصص المستمد من الحقائق التاريخية، والتي تروى لنا وقائع تاريخية حدثت مع الأمم السابقة تلك القصة التي رواها البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ، فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، قَالَ: فَأْتِنِي بِالكَفِيلِ، قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي البَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا، فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى البَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلاَنًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلاً، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا، فَرَمَى بِهَا فِي البَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا المَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ المَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ، قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الخَشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا"[42].

يسرد الرسول –عليه الصلاة والسلام- في هذه الحديث قصة الرجل الذي اقترض ألف دينار، وكيف أنه جعل الله كفيلاً وشهيداً عليه عندما طلب منه صاحب المال أن يأتيه بكفيل وشهيد، وكيف أنه استشعر حقيقة التوكل على الله حين لم يستطع أن يرد الدين في الموعد المحدد، حيث قام بإرسال المال في قطعة من الخشب ورمى بها في البحر،

وسأل الله أن يوصلها لصاحب الدين، فاستجاب الله له لعلمه بصدقه وصدق توكله عليه سبحانه وتعالى.

وما يثبت الحمولة الحجاجية لهذا السرد، أولا أنّه وقائع وأحداث تاريخية سابقة، أخبر عنها الرسول –عليه الصلاة والسلام-، ومن جهة ثانية ما تحدثه من تأثير الذي يتولد في نفس المخاطب، فللسرد القصصي أثر في تثبيت المعنى وتجسد الصورة، وإظهار المراد، والاشاد إلى مواطن الفطنة والعبرة.

يقول ليونيل بلنجر: "إن السرد يتميز بخاصة الجذب التي تضع المتلقي في حالة افتقاد لما سيأتي، وتجبره ضمنا على الإنصات منذ تلفظ المتحدث بالعناصر الأولى للخبر أو القصة"[43].

ويؤكد إبراهيم بن صالح ما ذهب إليه بلنجر في سياق حديثه عن السرد في الحكاية المثلية أنّ: "القصة ذات الأطروحة قصة برهانية إقناعية تنزع إلى حمل القارئ على التصديق، إلا أنّها لا تورد الحجج متوالية من أجل الإقناع كما يقع ذلك في الخطابة وإنّما تقوم على خطاب سردي يروي حكاية تؤدي وظيفة البرهنة على حقيقة ما، ولهذا تتضمن الحكاية المثلية تحفيزا للقارئ على التصديق وعلى ضرورة تعديل سلوكه"[44].

4. المثال باستحضار الأحداث .

1.4 المثل لغة: "المقدار. والقالب الذي يقدر على مثله. وصورة الشيء التي تمثل صفاته. ومقابلة شيء بشيء هو نظيره. ووضع شيء ما ليحتذي به فيما يفعل"[45].

2.4 **المثل اصطلاحا**

المثل في الاصطلاح هو: "قول موجز سائر صائب المعنى، تشبه به حالة حادثة بحالة سالفة"[46]، ونقل الميداني عن ابن السكيت قوله: "المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ، شبهوه بالمثال الذي يعمل عليه غيره"[47].

ويشمل المثل: "المثل التمثيلي، والقصصي، والنموذج الحي. ويكثر استخدامه بأشكال المختلفة في الخطاب الحجاجي وغير الحجاجي، إذ إن وظيفة المثل تتباين بتباين دواعي استدعائه، والدور الذي يناط به في الخطاب"[48].

2.4 حجاجية المثل.

المثل حجة تقوم على المشابهة ودعامة كبرى من دعائم الخطاب الإقناعي وقوة وحجة لدى المتكلم الذي يريد أن يؤيد حديثه بالحجج والبراهين، ويقطع دابر الخلاف شيء معروف يتوقف فيه الخصم ويستسلم عنده، يقول محمد العمري: "والواقع أن المثل يعد دعامة كبرى من دعائم الخطابة لما يحققه من إقناع وتأثير وإذا أخذناه بمعناه الواسع الذي يشمل التشبيه والاستعارة ولن نغفل ذلك إلا في حدود ضيقة صار أهم دعائم هذه البلاغة"[49].

وقد أشار قدامة بن جعفر إلى الوظيفة الحجاجية والبرهانية للأمثال فقال: "فأما الحكماء والأدباء فلا يزالون يضربون الأمثال، ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشباه والأشكال، ويرون هذا القول أنجح مطلبا وأقرب مذهبا وإنما فعلت العلماء ذلك لأن الخبر في نفسه إذا كان ممكنا فهو محتاج إلى ما يدل عليه وعلى صحته والمثل مقرون بالحجة"[50].

ومن ذلك قول الرسول –عليه الصلاة والسلام-: "إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"[51].

يستدعي الرسول –صلى الله عيه وسلم- في هذا الحديث مثالا تاريخيا من الأمم السابقة، يعرض من خلاله جانبا من جوانب الفساد الاجتماعي والافتتان بزخارف الدنيا، والذي أدى بالمجتمع الإسرائيلي إلى مهاوي الردى. فالدافع من هذا الربط هو "النظر والتعقل ومعاني العقل الربط أي ربط المعنى والعظة الماضية والانتفاع بها في الأوقات الحاضرة"[52].

وفي الخطاب النبوي (يستخلفكم فيها) دليل وحجة على شكل نموذج حي واقعي، يجعل المخاطبين خلفاء للذين كانوا قبلهم، لينظر كيف يعملون، وهي حجة الذين فنوا وجئنا بعدهم، بسبب الفتنة التي ابتلوا بنارها، (فان أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء). فالآية الكريمة تغري أتباع خاتم النبيين الاعتبار والنظر في عاقبة الغابرين ومهالك الظالمين، وسنن الله الجارية التي لا تجامل ولا تحابي.

4. خاتمة البحث

بعد هذه الرحلة المتواضعة مع آلية الشرح في مقاربتها للخطاب النبوي، خلصنا إلى نقاط نوجزها في الآتي:

- يعد الحجاج بالشرح شكل من أشكال البرهنة، وآلية من آليات الحجاج الفعالة.
- من أبرز وسائل الشرح التعريف، الذي ساهم في إحداث تفاعل دلالي وانفعالي، يفضي إلى الغاية الحجاجية.
- تبين أن الشرح بالمقارنة استغله الحديث النبوي بكثرة، لأنه من الأساليب السهلة، التي يدركها جمهور المتلقين على اختلاف مشاربهم.
- وظف الخطاب النبوي الوصف والسرد بكثرة في بيان حقائق الدين، باعتباره نوع من الإثبات والاستدلال.
- تستمد وسيلة الشرح بالمثال واستحضار الأحداث طاقتها الحجاجية من كونها تستدعي الوقائع التاريخية والنماذج الحية لتحصيل الإقناع.

5.الهوامش:

1 باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، تر: أحمد الودرني ، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، بيروت، 2009، ص40

2أمنة بلعلي، الإقناع المنهج الأمثل للتواصل والحوار، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 89، 2003، ص230.

3حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، إفريقيا، الدار البيضاء، 2004، ص112.

4ليونيل بلنجر ، عدة الأدوات الحجاجية ، ترجمة فضيلة قوتال، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ، عالم الكتب الحديث، ط1، اربد، 2010، ج 5 ، ص 391 .

5 المرجع نفسه، ج5، ص 391.

6 ابن منظور، لسان العرب، (دط)، دار صابر، بيروت، 2010، مادة (عرف)، مج 7 ، ص 237 .

7 الشريف الجرجاني ، معجم التعريفات ، دار الكتاب العالمية ، ط1، بيروت، 1983، ص 56 .

8 محمد علي التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون ، ط1 ، لبنان ، 1996 ، ص 482 .

9 كريستيان بلانتان ، الحجاج ، ترعبد القادر المهيري،دار سيناترا، (د.ط)، تونس، 2008، ص 96 .

10 علي الشيعان ، الحجاج والحقيقة و آفاق التأويل ، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، بيروت، 2010، ص 414 .

11 عبد السلام عشير ، عندما نتواصل نغير ، مطبعة إفريقيا الشرق، ط1،الدار البيضاء، 2006، ص141 .

12 المرجع نفسه، ص 142.

13 ليونيل بلنجر، عدة الأدوات الحجاجية، ص 395.

14 محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الأسلامي، ط3، بيروت، 1988، رقم 3650، ص681.

15 آمال يوسف المغامسي، الحجاج في الحديث النبوي، الدار المتوسط للنشر، ط1، تونس، 2016، ص356.

16 المرجع نفسه، ص356.

17 المرجع نفسه، ص 356.

18 المرجع نفسه، ص 356.

19 مسلم، صحيح مسلم، كتاب البروالصلة والأدب، رقم 2581، ص1200.

20 أمال يوسف المغامسي، الحجاج في الحديث النبوي، ص357.

21 المرجع نفسه، ص 359.

22 مسلم، صحيح مسلم، كتاب الذكروالدعاء، رقم2676، ص1235.

23 عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص 142 .

24ليونيل بلنجر، عدة الأدوات الحجاجة ، ص 400 .

25 المرجع نفسه، ص 398.

26 المرجع نفسه، ص 399

27 فيليب بروتون، وجيل جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج، ص 49.

28 سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، عالم الكتاب الحديث، ط1، الأردن، 2008، ص 248 .

29 أمال يوسف المغامسي ، الحجاج في الحديث النبوي ، ص362 .

30 فتح الباري، شرح صحيح البخاري، تحقق شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، ط1، بيروت، 2013، ج7، ص11.

31 حازم القرطاجني، مناهج البلغاء، دار الغرب الإسلامية، ط3، بيروت، 1986، ص44-45 .

32 ابن منظور، لسان العرب ، مادة (وصف)، ج9، ص357.

33 ابن القيم، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، دار الكتب العلمية، ط1 ، بيروت، 1408هـ، ص 189 .

34 قدامة بن جعفر، نقد الشعر، دار الكتب العلمية ،(د ط)، بيروت ، (د .ت) ، ص 41 .

35فيليب هامون ، في الصفي ، تر: سعاد التركي ، بيت الحكمة ، ط1 ، تونس ، 2003 ، ص 22.

36أمال يوسف المغامسي ، الحجاج في الحديث النبوي ، ص 364 .

37 ابن منظور، لسان العرب ، مادة (سَرَدَ)، ج3، ص211.

38 ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، دار الكتب العلمية،(د.ط)، قم، (د.ت)، مادة (سَرَدَ)، ص157.

39سعيد يقطين ، السرد العربي مفاهيم وتجليات ، رؤية للنشر والتوزيع ، ط 1 ، القاهرة ، 2006 ، ص 72

باتريك شارود ودومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، دار سيناتر، (د ط)، تونس ، 2008 ، ص 163 40.

41 فيليب هامون ، في الوصفي ، ترجمة سعاد التريكي، بيت الحكمة، ط1، تونس ، 2003، ص 27 .

42 فتح الباري، شرح صحيح البخاري، رقم 1498، ج5، ص204-205.

43 ليونيل بلنجر، عدة الأدوات الحجاجية، ج 5 ، ص 393 .

44 المثلية عند ابن إبراهيم بن صالح ، الحكاية المقفع ، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، ط1، صفاقص، 2003، ص(27،27).

45 الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، ط1، 1998، مادة (مثل)، ص466.

46 عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، دار الفكر، ط1، بيروت، 1988، ص11.

أبو الفضل الميداني، مجمع الأمثال، دار الفكر، ط3، بيروت، (د.ت)، مج1، ص47.5

48 علي الشبعان، الحجاج والحقيقة و آفاق التأويل، ص307.

49 محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، ط2، المغرب، 2002، ص85.

50 ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: حنفي محمد شرف، مكتبة الشباب،(د.ط)، (د.ت)، ص 117، 118

51مسلم، صحيح مسلم، كتاب الرقاق، رقم 2742، ص 1256.

52 رمضان خميس زكي، مفهوم السنن الربانية، مكتبة الشروق الدولية، ط1، القاهرة، 2006، ص77.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊